تمثل فكر جماعة باريس في منظور السيميائيات الوسائطية

الأستاذة الدكتوراه: فايزة يخلف
جامعة الجزائـر/ الجزائــر

مقدمة

استأثر موضوع السيميائيات الوسائطية باهتمام العديد من الباحثين المحدثين، وذلك انطلاقا من فكرة أن الخوض في إشكالات التواصل عموما والاعلام خصوصا يستلزم ملامسة قضايا فكرية ونظرية متباينة من حيث خلفياتها المعرفية وآلياتها الادراكية.

ولأن التعامل مع الإنجازات السيميائية الراهنة يقتضي مساءلة كيفيات اشتغالها ومراجع اشتقاقها، سنتوجه بدء إلى استجلاء الأطر المفاهيمية للسيميائيات الوسائطية من خلال التأكيد على إجراءات تحليل النص الوسائطي وانتقالها من تحليل المضمون إلى تحليل الخطاب، لنبسط عقب ذلك حديثنا المركز على التأصيلات التأسيسية للسيميائيات الوسائطية من خلال استحضار الجهود العلمية التي استقت منها السيميائيات الوسائطية كبريات أدواتها النظرية، يتعلق الأمر في هذا المقام بالتنويه إلى الرصيد المشترك لجماعة باريس.

1- السيميائيات الوسائطية: الأطر والأبعاد المفاهيمية

السيميائيات الوسائطية هي تلك النظرية العامة التي تروم بحث وتأصيل مقاربة الخطاب الصحافي بتحققاته النصية المكتوبة والسمعية البصرية[1]. بهذا المعنى فهي إطار معرفي يلازم التفكير في الفعل النظري لصياغة نسق التواصل صياغة نموذجية[2].

ولما كانت الانتاجات الإعلامية ضربا من التواصل الإنساني المقترن بتقنية الوسائط، لزم على مثل هذه السيميائيات النوعية أن تبحث في النسق التواصلي في مجمله من حيث مكوناته القاعدية ووظائفه الدلالية ومقاصده التداولية[3]. ذلك أن ما يميز التواصل الوسائطي اشتغاله النسقي ضمن تفاعل شامل للإنسان، المجتمع والثقافة، وفي هذا المجال يغدو

الخطاب الصحافي نسقا نصيا ينتظم تعبيره اللغوي وتدليله المنطقي في انسجام مع السياق الثقافي والمجتمعي العام[4]. على هذا النحو ترجح هذه السيميائيات في النمذجة التواصلية وجهة النظر المعرفية التي تفترض أن معرفة الوسائط الجماهيرية بؤرة لتفاعل ثلاث بنيات كبرى: الذات، اللغة والعالم، ذلك ان الأفعال والمسارات التواصلية مبنية بناء عقلانيا قائما على التمثيلات الذهنية التي تتولد بشكل تقريبي ومتفاوت في آن واحد، عن أحداث العالم وأوضاعه. فعلى الرغم من أن الوسيط آلة اصطناعية فإنه يظل في بعده التواصلي أداة فاعلة في نسج الخطاب الصحافي وصياغته وفق خطة معينة لترسيخ تمثيل معرفي خاص في الذهن الجماعي[5]، وعلى هذا الأساس، ينهض التواصل الوسائطي بتبليغ النصوص الإعلامية ارتكازا على قاعدة معرفية تؤطر البنية الكلية المشتركة لسلوكات الجماهير المستهدفة وآرائهم ومواقفهم، وفي هذا الاطار يغدو الخطاب الوسائطي شكلا رمزيا لإعادة انتاج أحداث العالم وأوضاع المجتمع بما يتساوق مع محددات المعرفة الشخصية والجماعية. ان التواصل الوسائطي - بهذا المعنى- يراهن في اشتغاله الخطابي وتحققه النصي على خصوصيات البنيات اللغوية[6].

ويستلزم عن وسم انتاجات الوسائط بالخطابية القول بسيميائية اللغة الإعلامية التي تعالق القوالب اللسانية (التركيبية، الدلالية والتداولية) بالقوالب المعرفية (السياسية، المجتمعية والثقافية)، وعلى هذا الأساس فإن لغة الخطاب الصحافي لا تخلو من أدلة تضمينية تلمح للسياق التواصلي عبر مؤشرات محلية (تؤطر السياق بتخصيص النص) أو شاملة (تفرز السياق بتعميم الإحالة النصية)[7].

ونظرا لما ينطوي عليه السياق التواصلي من شروط التحقق التخاطبي، عكفت السيميائيات الوسائطية على البحث على تصورات تحليلية مغايرة لمعايير تحليل المضمون وسبله المنهجية كما سادت في الساحة الثقافية الغربية والعربية، الأمر الذي أدى على بروز اجرائيات نسقية تصف الخطاب الإعلامي وصفا منسجما ومتكاملا وهو ما يعني إعادة النظر في انتقال البنيات الكبرى للوسائط التواصلية.

2- من تحليل المضمون إلى تحليل الخطاب

لقد خضعت انتاجات الوسائط الإعلامية الجماهيرية في الدراسات التقليدية لأوصاف خارجية تعالج الظواهر الصحافية في علاقاتها المباشرة بالمجتمع، التاريخ والثقافة، فلزم

عن ذلك انحصار الاهتمام في مساءلة التجليات السطحية للاعلام بدل التركيز على البنيات الصغرى للخطاب الصحافي[8] وفي هذا المقام، تم التأكيد إمبريقيا، على ضرورة تحليل السياق التواصلي، انطلاقا من الالتزام بأدبيات تحليل الخطاب[9].

ان القصد من تبني مقاربة تحليل الخطاب ونظريته دراسة انتاجات الاعلام وانزالها منزلة النص النسقي لتكون نمطا خاصا وجنسا نوعيا للخطاب الطبيعي، ومقتضى كلامنا تجاوز اعتبار النص الصحافي رسالة متجانسة كما الشأن في الأبحاث التواصلية التقليدية ونظرية تحليل مضمون الوسائط الجماهيرية. وعليه ننتقل من الوصف التجزيئي للإنتاج الصحافي الذي بلورته العناية الانعزالية بالمحتوى الدلالي إلى الوصف النسقي الذي يجسد كل المتعلقات الأساسية للخطاب: المضمون، الشكل، الاستدلال، المقتضى وغيرها[10].

ولأجل تسطير تصور يخص نسقية الخطاب الصحافي استثمر سيميائيو هذا الفرع[11] في التنويعات التنظيرية التي اشتغلت بالخاصيات الممثلة في القواعد الخطابية التي تولد خطابا معينا وفقا لآلياته الذاتية، ولعل أبرز هذه المرجعيات الفكرية على الاطلاق جهود جماعة باريس التي اتسمت بانفتاح في التصور ومرونة في التطور[12].

3- التواصل الوسائطي ودلالة الوسم الوظيفي لنموذج المسار التوليدي

ان الحديث عن المسار التوليدي le processus génératif يحيلنا إلى المستجدات العلمية التي تضمنها مشروع غريماس الساعي إلى تفكيك الأشكال المعقدة للدلالة إلى عناصر بسيطة،

وإذا ما أردنا تبين ذلك في بناء نسق الخطاب الصحافي، وجدناه ممثلا في مبدأ التأليفية الذي يفيد في تقنين سلامة بناء العبارات والمقاطع بناء على السنن مع تعقيد طرق تعلق المكونات النصية للمادة الإعلامية، ومن ثم تكون المعاني الكلية للخطاب الوسائطي تابعة للمعاني الجزئية المقترنة بالبنيات النصية[13]. هاهنا ينهض النحو بتحفيز السنن من أجل تشكيل بنيات تأليفية تعكس إجراء الانتقال من الأدلة المعقدة إلى الأدلة البسيطة[14].

وعلى الجملة تتم صياغة بنية النصوص الوسائطية: مكتوبة، مسموعة أو سمعية بصرية، وعلى هذا الأساس يتحدد الخطاب في الجنس الخبري على نظرية تركيبية دلالية للصعيد العبر جملي وهو الطرح الجوهري الذي تضمنه اصدار الجرداس غريماس Algerdas

Greimas حول" الدلالة البنيوية"[15].

من هذا المنطلق أكد ڤان ديك Van Dijk على إفادة السيميائيات الوسائطية من أفكار غريماس خاصة في بلورة نظرية الخطاطة الخبرية التي تتأسس من مقولة الموجز التي تتصدر النص لتصوغ بنيته الدلالية العميقة صياغة لفظية من خلال جمل تفصيلية تعبر بإيجاز عن أهم مواضعه ومحاوره. ويعين الموجز –ضمن وظائفه الاستراتيجية- في الاطلاع على البنية الدلالية الكبرى للنص من خلال البنية المحورية الكبرى التي تستجمع مكوناتها من الجمل النصية[16].

إن هذا الاقتضاء السياقي للخطاب الإعلامي يختلف باختلاف اللغة الوسائطية ذاتها. وان أجملنا االأمر، قلنا أن اللغات الوسائطية ذاتها تتولد وفق نمطين أساسيين: أولهما، نمط اللغة اللفظية، وثانيهما نمط اللغات غير اللفظية.

وكلاهما يخضع في انتاجه لمنطق الدلالة البنيوية التي تقوم على فكرة الانسجام إن على صعيد العبارة أو على صعيد المضمون. ويرجع حاصل البحث في- مشروع غريماس- إلى أن الخطاب الصحافي بنية دلالية تنزل منزلة المجموعة المشكلة من عناصر وعلاقات: تعد العناصر المكونات الفعلية لوجود البنية فيما تعتبر العلاقات المرتكزات الحقيقية لانسجامها واشتغالها[17]. وتتصف بنية الخطاب الاخباري وفقا لهذا الطرح بثلاث خاصيات متراتبة ومتفاعلة. أولها خاصية النظم الذي يفيد تعلق الوحدات البنائية الأساسية فيما بينها على طرق دلالية معلومة وقوالب محكومة[18] ويحترم النظم مبدأ العلاقات الذي يقتضي الاحتراز عن الأخذ بالوحدة منعزلة عن وحدات مجالها، كما يتقيد بمبدأ التحولات الذي يتحاشى ثبات العلاقات بين وحدات الخطاب. وثانيهما، خاصية التدليل التي تحيل إلى عملية الاسنادات المحورية والتسديدات التأويلية للوحدات الخطابية، ذلك أن بنية الخطاب عموما والصحافي تحديدا لا تسلم إلا بطبعها الدلالي المتضمن للمعاني المعجمية والتأليفية والتبليغية[19]، وثالثها، خاصية التنسيق التي تقتضي وضع الخطاب ضمن سياقها اللساني والتخاطبي والمعرفي، إذ لما كان تدليل الخطاب أمرا ذهنيا وفقا لطرق التأليف وجهات الاسناد كما صرح ڤان ديك Van Dijk، وجب أن تتبع البنية الخطابية الإخبارية أيضا أحد مقومات ذكر مدرسة باريس يتعلق الأمر بـ:

4- الاستراتيجيات التواصلية ودلالة التضايف بين السردي والاستدلالي

يشكل التكوين المقولي للمادة الإعلامية والنص الخبري الأساس السيميائي لضبط استراتيجية السرد والاستدلال في بنية الخطاب الصحافي[20] وهو الطرح الذي تؤكده دلالة "القصة الخبرية"[21] التي تعمل في اتجاه إبراز السنن التأليفية للنص الخبري ومقاصده التداولية.

وباستحضار أفكار مجموعة باريس يمكن فحص سيرورة التواصل في التجليات اللفظية للنسق الإعلامي، ومن ثمة إثبات بعض الحقائق العلمية التي غذت النظرية السيميائية الحديثة، وفي ذلك تنويه بالدراسة القيمة التي انجزها برنار بوتي Bernard Pottier حول "السيميائية السيرورة غير مستحبة"، حيث قدم قراءة جديدة للارث "الغريماسي" أثبت من خلالها أن السرورة تعد قاعدة ضرورية لكل برنامج سردي[22].

واتساقا مع هذه المعطيات، يمكن القول أن البعد السردي والاستدلالي في النسق التواصلي لا يقيم فصلا بين الإنتاج: توليدا وتأليفا، التأويل: فهما وتمثلا ثم الاستدلال: تبليغل وتخاطبا[23].

وإذا كانت استراتيجية السرد والاستدلال تقوم في الخطاب الوسائطي اللفظي على سيرورة التأليف السيميائي المنسجم لأدلة الخبر اللسانية، فإن النصوص الوسائطية السمعية البصرية تمتاز بخضوعها لسنن خطابية متعددة تؤطر توليد السرد والتصوير والتصويت، ومن ثم تكتسي البنيات الإخبارية قيمتها الفنية الحجاجية بمدى تقيدها بمبدأ التوامن واحترامها له[24]، والمقصود بالتزامن التوازي المنطقي بين المقاطع السردية واللقطات التصويرية، بحيث يقع الانسجام بين مستويات القصة الخبرية ومدلولاتها من جهة وتوالي اللقطات ونوعيتها من جهة ثانية. وإذا دققنا الأمر قلنا أن التوامن يتعلق بحيز التطابق بين وجهات النظر السردية ووجهات النظر التصويرية، ومتى علمنا بأن لكل اللقطات وجهة نظرها وتبئيرها الخاص لزم عن هذا العلم ضبط الحركات التصويرية وفق ما يقتضيه التحول السردي وعلى هذا النحو، يضمن النص الخبري في الوسائط السمعية البصرية توليدا متوازيا للأدلة اللفظية وغير اللفظية، وإضافة إلى ذلك، ينطبق مبدأ التزامن على ترابط بنية الصورة والمؤثرات الصوتية التي يتم توظيفها زمن تشكيل النص الخبري[25].

وضمن هذا السياق المخصوص يتبدى الفهم الواضح للتنظيم الدلالي في الشبكة البنائية التي يسميها غريماس –المسار التوليدي- حيث يقع التمييز بين البنى السميو-سردية sémio-narratives والبنى السميو-خطابية sémio-discursives حيث تحليل البنى الأولى إلى التركيب السردي الأساسي و التركيب السردي السطحي، في حين تدل الثانية على آليات بناء واشتغال الخطاب[26].

ولا ريب ان المحور الأساسي في ضبط السرد والاستدلال في الخطاب الصحافي يقوم على إعطاء الصدارة لمسألة التلفظ enonciation التي قال بها كل من بنفنست Benveniste وجوزيف كورتيس Joseph Courtés[27]، فالألفاظ في الخطاب الاخباري مكونات دلالية حاسمة في إحداث وصنع التوجهات السيميائية للمواضيع الإعلامية[28] ومتى ذهبنا مذهبا مقوليا في وصف الخبار، قلنا – تبعل لڤان ديك Van Djik- ان الخطاب الخبري مقولة لفظية تتشكل عبر قواعد التكوين ضمن خطاطة معرفية كلية. ومن ثمة، تخضع الأخبار الصحافية لمقولات تلفظية enonciatives تتجسد في أشكال سردية وحجاجية تنبني على مقدمات واستدلالات فنتائج[29].

وثلما نهلت السيميائيات الوسائطية من إرث مدرسة باريس في الإحاطة بمكامن استغال وبناء المقولات الدلالية والتلفظية في النسق التواصلي، عمدت أيضا إلى الاستئناس بذات أفكار المدرسة حول البنية التأسيسية للنص وما يوحي بحركيتها ضمن:

5- المسلك الدلالي ومخرجات المربع السيميائي

يرتبط المربع السيميائي Le carré sémiotique بمقولة التنظيم الدلالي والسردي في بنية الخطاب، أنه إذا بنية انبثاق يسعى إلى تمثيل كيف يتم انتاج الدلالة عن طريق سلسلة من العمليات الإبداعية لمواقع متباينة[30].

على هذا النحو، يكون المربع السيميائي قابل للتماثل، مع التركيب السردي السطحي الذي هو بدوره، بنية انبثاق للدلالة. هاتان اللغتان الوصفيتان متعالتان لأنهما متشاكلتان، ولكنهما ليستا متناظرتين[31].

وقد ساهم هذا الطرح التنظيري المتميز في كيفيات تمثيل اشكال تداخل العلاقات ما بين الوظائف والموضوعات، في إثراء الخطابات الإعلامية عموما والمضامين الاشهارية

خصوصا، حيث يتألف النص الشهاري من مجموعة من الدلائل اللغوية الموجزة في شكل ملفوظات كثيفة énoncés condensés، يستدعي توسيعها اللجوء إلى المقابل المعجمي من اجل الحصول على المفردات التي تعادلها في مستويات المعنى[32].

ويعد هذا الانتقال من مستوى البحث عن المعنى (le sens) إلى مستوى اكتشاف الدلالة la signification بمثابة إجراء سمنطيقي sémantique يؤهل الباحث لإيجاد قائمة المفردات lexèmes التي تشكل قيم دلالية مضافة valeurs ajoutées تعمل على تمييز وترتيب عدد من مستويات الوصف المتجانس للخطاب الاشهاري.

ان هذا التعبير عن ما هو ثابت من مفردات الاشهار باستخدام مجموعة من المتغيرات الدلالية هو في الحقيقة إثراء لبنية النص عن طريق اعتماد ما يعرف في السيمياء الدلالية بدراسة النظائر isotopie[33]، وفي سياقها يتم تحديد كل الدلائل اللغوية التي يمكن تركيبها على محرر سياقي axe syntogmatique يسمح بتوسيع وتعزيز معنى المفهوم الاشهاري le concept publicitaire. ولأن قيمة الملفوظ في الخطاب الاشهاري لا تتحدد بالتقابل الإيجابي فحسب وإنما أيضا من التقابل السلبي، كان المربع السيميائي أفضل مدخل ابستيمولوجي لفهم العلاقات بين القيم المحورية للخطاب الإعلامي والاشهاري على وجه الخصوص.

وهكذا استفادت السيميائيات الوسائطية من مخرجات المربع السيميائي في فهم مدلولات النصوص، من خلال فهم حركية العلاقات الماثلة في ثناياها والمتراوحة بين التعدد pluralité، التنوع diversité و التنافر hétérogénéité.

خاتمة:

إجمالا، يمكن القول أن التاسيس الفكري للسيميائيات الوسائطية اعتمد بقدر كبير على التصور السيميائي الجامع لمدرسة باريس، وعلى المنظومة المرجعية لاجتهادات مفكريها وملامستهم للدليل واللغة.

وإذا كانت أفكار غريماس A. J. Greimas وكورتيس Courtés وبوتيPottier تهدف إلى تخريج أساسيات الدليل في أبعاده الوجودية والبنيوية، فإن السيميائيات الوسائطية بوصفها سيميائيات نوعية، تهدف إلى تسديد وصف محدد لحقل معين يعنى

بظاهرة تواصلية محكومة وبنية دلالية موسومة

الهـوامـش

(1) André Castel : Pour une sémiotique de canalisation, édition Payet, Paris, 2003, p16.
(2) Ibid., p17
(3) George Yule : Discourse alalysis, Cambridge University Press, Cambridge, 2007, p9.
(4) Antoine Mills : Test, discourse and Mass communication, Walter de Cruyter, Berlin, 2001, p11.
(5) Ibid., p12
(6) Ibid., p14
(7) Antoine Mills : Test, discourse and Mass communication, Op cit, p22
(8) Ibid., p24
(9) Ibid., p25
(10) Richard Gerlmer : Toward a général Model of communication, Columbia University Press, New York, 2006, p35
(11) من الباحثين المعروفين في هذا المجال نذكر ڤان ديك Teum A. Van Dijk ، جورج بنتيل G. Bentele، توم برنستاين Tom Bernstein. إلخ ...
(12) Jean Claude Coquet : sémiotique : l'école de Paris, Hachette, Paris, 1979, p20.
(13) Tom Bernstein : Deciding what's Analysis neuss Pantheon, New York, 2003, p38.
(14) Ibid., p 39.
(15) A. J. Greimas : Sémantique structurale, P.U.F, Paris, 1986, p66.

(16) Van Dijk : Strategies of discourse comprehension, Academic Press, New York, 1991, p14.
(17) Ibid., p15.
(18) Ibid., p19
(19) Richard Gerbner : Toward a général Model of communication, Op Cit, p55.
(20) Ibid., p56
(21) Ibid., p57.
(22) Bernard Pottier : Un mal-aimé de la sémiotique : le dernier in exigences et perspectives de la sémiotique , Paris, 1986, p8
(23) Van Dijk : Text and context : Explorations in the semantics and pragmatics of discourse, Longman Londob, 2006, p109.
(24) George Bentele: Audio-visuel Analysis and a grammar of presentation forms in news programms: some media-sémiotic considerations, Hutchonson, London, 2009, p14.
(25) Ibid., p16.
(26) F. Nef : Structure Elémentaires de la signification, édition complexe, Paris, 1976, p167.
(27) Jean Claude Coquet : sémiotique : l'école de Paris, Op, cit, p42.
(28) Antoine Mills : Text, discourse and mass communicatiob, Op, cit, p98.
(29) Van Djik : Strategies of discourse comprehension, Op, cit, p71.
(30) Daniel Patte : carré sémiotique et syntaxe narrative, in actes sémiotique, documents du groupe de recherches sémio-linguistique, paris, 1981, p23.
(31) Ibid., p24.
(32) Richard Salkie : Text and discourse analysis, Routledge, London, 2009, p81.
(33) Ibid., p83.